قبس من نور الصحابة والتابعين

د. محمود جيلاني

أحمد بن حنبل إمام أهل السنة

هذه الكتيبات

هذه المحاولة في تلخيص تاريخ الشخصيات المميزة عبر تاريخنا الإسلامي أخذت منى سنين طويلة حتى أصل إلى هذه النتيجة.

ومن وجهة نظرى تتميز هذه الكتيبات بما يلى:

1- جميع الأحاديث النبوية الواردة فى الكتيبات تم تخريجها للتأكد من صحتها. مع تجنب ذكر أي رواية غير موثقة.
2- التركيز فقط على الجوانب الإيمانية والخلقية في الشخصية.
3- التعليقات فى الحدود الدنيا، منعا للتطويل لكنى أضفت كلمة أخيرة في نهاية معظم الشخصيات للحديث عن أبرز سمة.
4- اللغة السهلة في الكتابة لتناسب عموم الناس.
5- الحجم الصغير بحيث لا يستغرق قراءته أكثر من 20 دقيقة.

في النهاية أؤكد على أنى لست عالم دين، ولكنى مسلم عادى يحاول خدمة دينه بعرض هذه النماذج من تاريخنا بالصورة اللائقة دون تزويق أو تزوير، بهدف الاقتداء المستنير بهذه الشخصيات.

جميع الكتيبات تجدها في موقعى www.drgilany.com

هذه الكتيبات وقف لله تعالى على روح والدتى رحمها الله.

المحتويات

المقدمة العامة الكتيبات .Error! Bookmark not defined

أحمد مع أمه..... 4

تعبه في سبيل رواية الحديث..... 8

الإمام أحمد مع الإمام الشافعي..... 9

حلقة الإمام أحمد ببغداد..... 10

عصر الإمام أحمد بن حنبل..... 12

زهد الإمام أحمد بن حنبل..... 16

جيل الخلفاء الثاني وبداية المحنة..... 18

الخليفة المأمون..... 19

بدعة خلق القرآن..... 20

محنة الإمام أحمد..... 22

الإمام أحمد مع المعتصم..... 24

ثم جاء الفرج..... 26

وفاة أحمد..... 28

كلمة أخيرة (العفو والصفح)..... 28

هناك الكثير من الألقاب تسبق أسماء الصالحين مثل الإمام أو الشيخ أو العالم، ولكن الإمام الذهبي شيخ المؤرخين حين قدم سيرة الإمام أحمد في كتابه سير أعلام النبلاء عجز عن أن يصفه بلقب معين، فقال:

" **هو الإمام حقا، وشيخ الاسلام صدقا** "!!.

أحمد مع أمه

أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل، من بني شيبان (راجع التعريف ببني سيبان في الكتيب الخاص بالمثنى بن حارثة)، ولد عام 164هـ، ونشأ يتيما بين أحضان أمه ورعاية بعض أعمامه، وذلك بعد وفاة أبيه القائد الشاب وأحد المرابطين ببلاد خراسان (إيران حاليا). كانت أمه قد نذرت حياتها لوليدها، وحرصت على تعليمه اللغة والأدب والقرآن والحديث، الأمر الذي جعل الإمام أحمد يجازي صبرها الطويل معه بذكر دائم وشكر لا ينفذ.

ولد الإمام أحمد بمدينة مرو (من مدن خراسان وتقع بإيران حاليا)، وكان والده بين أجناد مرو قائداً، ومات وهو ابن ثلاثين سنة، فنشأ أحمدُ يتيما، وتحولتْ به أمه من مرو إلى بغداد، **ثم وليت أموره" فكانت هي المدبرة لكل شأنه.**

والعجيب أن أمه التي "**وليت أمورَه**" كما يقولون، وصنعت منه ما صنعت ليس لها ذكر فى كتب التاريخ إلا أسطرٌ معدودة فى كتاب!!. فنحن لا نعرف عنها سوى أن اسمها صفية بنت مَيْمُون بنت عبد الملك الشَّيْبانية، وأن جدها عبد الملك كان من سادة بني شَيْبان، وكانت قبائلُ العرب تنزل عليه فيضيفهم.

وهذا للأسف كان دأب المؤرخين لا يهتمون بتاريخ النساء إلا ليقال أنها أم فلان أو بنت فلان، حتى لو كان هذه المرأة قد ربت وعلمت وقدمت للأمة أمثال أحمد بن حنبل.

وهذا أحد من عاصروا الإمام أحمد في طفولته – يقول: "كُنَّا مع أحمد بن حنبل في الكُتَّابِ، فكان النساءُ يبعثن إلى المُعلم: ابعث إلينا ابنَ حنبلَ، ليكتبَ الأسئلة والأجوبة الخاصة بهن، فكان إذا دَخَل إليهن، لا يرفَعُ رأسَهُ، ينظرُ إليهن. فجعل أبي يَعْجَبُ مِنْ أدبه، وحُسْنِ طريقتِه، فقال لنا ذات يوم: " **أنا أُنْفقُ على ولدي، وأجيئُهم بالمُؤدِّبين، على أن يتأدبوا، فما أراهم يُفلِحون، وهذا أحمد بنُ حنبل غلامٌ يتيمُ، انظرْ: كيف يدخل وكيف يخرج؟** وجعل يَعْجَبُ ".

وللأسف لم يلتفت هذا الرجل ولا غيره إلى الأم التي ربت هذا الغلام اليتيم!

ويبدو من أطراف الروايات البسيطة التي تورد ذكر هذه الأمُّ، أنها كانت على درجة عاليةٍ ورفيعة مِنْ دقة المُتابعة والتَّتَبُّعِ لحياة ابنها، الأمر

الذي مَكَّنه – دون ريب – مِن التَّحصيل، والعلم، والمُذَاكرة؛ فقد رُوِيَ عن حفيدها، عبد الله بن الإمام أحمد، قال: " سمعتُ أبي يقول:

رحم الله أمي، كلما تَهَيَّأتُ لصلاةِ الفجرِ تَذَكَّرْتُها، فقد كانت تُجَهِّز لي ثيابي، ووَضُوئي، وتقف على الباب حتى ترى الخَيَّالَة (الشرطة)، فإذا رأتْ الخَيَّالَة اطمأنَتْ، وأطْلَقَتْني، ودفعتْ إليَّ فَطُوري، وأوْصَتْني بالدرس بعد الصلاة.

وكانت رحمها الله من الأثر والتأثير عليه، بحيث يَظَلُّ، يُراعى خاطرها، ولا يأتي من الأفعال إلا ما يوافق هواها فحين قَدِم جريرُ بن عبد الحميد بغداد (وكان من العلماء العباد)، نزل فى الجانب الشرقي لنهر الفرات وجاء المَدُّ فارتفع الماء في النهر. يقول الراوى: فقلتُ لأحمد بن حنبل: تعبر؟ فقال أحمد: أُمِّي لا تَدَعُني. فكانت أمه حاضرة في ذهنه ويراعى خاطرها وما تحب في كل تصرفاته فهو يتوقع أنها لن تسمح له بعبور النهر والماء مرتفع فيه ولذا رفض أن يعبر.

وحتى بعد أن كبر وصار رجلا، فإنه كان حريصا ألا يصنع شيئا دون علمها، فإذا فعل فعلا على غير هواها فعليه أن يتوقع ألا يسير الأمر كما يريد. يقول أحمد: خرجتُ إلى الكوفة، فَحُمِمْتُ (أصابه الحمى)، فَرَجَعْتُ إلى أمي، رحمها الله، ولم أكنْ اسْتِأذَنْتُها. ومرة أخرى يظهر أحمد ارتباطه الوثيق بأمه، حتى أنه يعتبر أي أذى يصيبه بسبب تقصيره معها. بل إن الإمام أحمد ترك الزواج طيلة أيام الشباب برا

بها، فكيف يهنأ بزواج وأمه قد تركت الزواج من أجله!! **فلم يتزوج أحمد حتى ماتت، وكان يقول: " ما تزوجتُ إلا بعدَ الأربعين ".**

وقد تزوج مرتين وتَسَرَّى بجارية (اشتراها وأعتقها وتزوجها)، فأما الزوجة الأولى فهي عباسة بنت الفضل، وأنجبت له صالحاً (ت: 265هـ) أكبر أولاده جميعاً، وقد وَلِيَ قضاء أصبهان. ولما توفيت أم صالح تزوج بريحانة فولدت له عبدَ الله (ت: 290هـ)، وكان أحفظ للحديث من صالح أخيه، فكان أروى الناس عن أبيه. فلما ماتت ريحانة تزوج جاريته " حُسن". وكان أحمد يعيش حياة زوجية مستقرة عبَّر عنها حين ذكر أهله فقال أنه:

مكَثَ عشرين سنة لم يختلف وزوجته في كلمة واحدة.

هذا، والأمر اللافت أنه *رَحِمَهُ اللهُ* لم يجمع بين أيٍ من زوجتيه، ولا حتى مع سُرِّيَّتِه ؛ فقد تزوج ريحانةَ، أم عبد الله ابنه، بعدما ماتت عباسة، أمُّ صالح، وتسري بحُسْنٍ بعدما ماتت ريحانة، والعجيب كما سنرى أن الأئمة الأربعة مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد كلهم كانوا كذلك.

بدأ أحمد تلقي العلم على يد القاضي أبي يوسف، تلميذ أبي حنيفة، وكانت حلقة بغداد أعظم حلقات الدنيا منذ مات الإمام مالك سنة ١٧٩هـ، وكان أحمد وقتها في الخامسة عشرة من عمره. ولذا فإن أحمد بدأ الصعود من عند قمة علم أبي يوسف، ولما مات أبو يوسف ترك أحمد بغداد ورحل في الآفاق لا يدع عظيما في العلم إلا وعي علمه.

سعى الإمام أحمد بن حنبل لتحصيل وتسجيل حديث رسول الله ﷺ من فجر شبابه، وكان المُحدِّثون الذين يُحدِّثون عن رسول الله ﷺ منتشرين في كل بقاع الأراضي الإسلامية، وسعى الإمام أحمد إلى أن يأخذ عن كل علماء الحديث المحدِّثين في العراق والشام والحجاز واليمن، ولذلك فإن الإمام أحمد يعتبر أول مُحدِّث يجمع الأحاديث من كل الأقاليم المشهورة وقتها. وتنوع مصادر الأحاديث في كتابه المسمى "المسند" شاهد على ذلك.

ولما نوى أحمد الرحيل إلى اليمن ليسمع من إمامها المُحدِّث عبد الرازق بن همام لم يجد مالا يكفيه في سفره **فعمل حمَّالا لقافلة، وذهب معهم إلى اليمن ماشيا**، وكان يقول ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرازق. وأى مشقة هذه لرجل يعمل شيالا ويخدم قافلة تسير إلى اليمن.

ذهب الإمام أحمد إلى مكة والمدينة، وجلس في حلقة يدرّسُ فيها شابٌ خطيبٌ وشاعرٌ وأديبٌ، له طريقة جديدة لم يعهدها أحمد في سواه، فهو يتكلم في الفقه بالقرآن والحديث، رغم علمه أيضا بالرأي وإعمال العقل. وكان هذا الشاب هو الإمام الشافعى وكان وقتها في الثلاثين من عمره، وكان أحمد وقتها في الثالثة والعشرين، فوضع الشافعى أقدام أحمد بن حنبل على طريق الحديث.. فكان أحمد يقول: ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي.. محمد بن إدريس الشافعي.

وكانت المودة عميقة بينهما، فكلاهما يعرف فضل الآخر رغم فارق السن.. فكان الشافعي يقول:

" يرحم الله أبا عبد الله - الإمام أحمد - ما صليت صلاة إلا دعوت لخمسة هو أحدهم وما يتقدمه منهم أحد"

وفى المقابل كان أحمد يقول:

"ما من أحد مسَّ محبرة إلا وللشافعي في عنقه منّة "

لم يجلس أحمد للتحديث والفتوى إلا بعد أن بلغ الأربعين، وبعد أن طاف بالعديد من الأقاليم الإسلامية واستمع إلى علماء الأمصار المعاصرين. وقد ذكر بعض الرواة أن عدد من حضروا درسه ببغداد وصل إلى نحو خمسة آلاف، وأن من كان يكتب منهم نحو خمسمائة، وربما كان ذلك سبباً في كثرة رواة الفقه الحنبلي.

ولم يكن كل الذين يحضرون الدرس راغبين في علم ابن حنبل فقط، بل منهم من كان يذهب ويريد أن يتأدب على يديه وينظر إلى هديه وخُلقه وتعاملاته مع من حوله، فقد رُوي عن بعض معاصريه أنه قال:

حضرت دروس أبي عبد الله أحمد بن حنبل اثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبت منه حديثاً واحداً، وإنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه

كان للإمام أحمد مجلسان للدرس والتحديث: أحدهما في منزله يُحدِّث فيه خاصةَ تلاميذه وأولاده، والثاني في المسجد يَحضر إليه العامة والتلاميذ، وكان الوقارُ والسكينةُ شعار حلقته فهو لا يمزح ولا يلهو، وكان مخالطوه لا يمزحون في حضرته. بل إن شيوخه كانوا لا يمزحون في حضرته، فقد رُوي أنه كان جالسا فى مجلس يزيد بن هارون وهو أحد مشايخ أحمد، فمزح يزيد مع مستمعيه، فتنحنح أحمد بن حنبل،

فضرب بيده على جبينه وقال: «ألا أعلمتموني أن أحمد هنا حتى لا أمزح؟»، فقد كان أحمد يرى

أن رواية السُّنة عبادة، ولا مزاح في وقت العبادة.

وكان أحمد بن حنبل لا يُلقي الأحاديث المروية في موضوع ما إلا من كتاب كتبه بنفسه حرصاً على جودة النقل، وإبعاداً لمظنة الخطأ ما أمكن. أما فتاويه الفقهية التي كان يضطر إلى استنباطها، فكان لا يسمح لتلاميذه أن يدونوها، إذ إنه ما كان يستجيز التدوين إلا للأحاديث النبوية، فكان يرى أن آراءه يمكن أن يثبت لاحقا أنها خاطئة، وكان أبغض الأشياء إليه أن يرى كتاباً قد دونت فيه فتوى له، وكان يَكره وضع الكتب التي تشتمل على الرأي، ويحب التمسك بالأثر، وكان يقول: لا تنظر فيما كتب العلماء حتى لو كان هذا العالم هو الشافعي أو مالك، وعليك بالأصل. وقد تأسس على هذا الفهم قاعدة أصولية مفادها: **أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع.**

فبنى مذهبه على الحديث، ومن أجل ذلك قضى نصف عمره يجمع الأحاديث ويجعلها أصولا لفقهه.. لكن نشير إلى نقطة هامة تميز الإمام أحمد وشخصيته وتلخصها عبارته المشهورة التي طبقها بنفسه وهي:

"صاحب الحديث من يعمل به "

كان العصر الذى نشأ فيه أحمد هو عصر العلم، تألق فيه الإمام مالك والشافعي وابن حنبل وأبو يوسف، وتألق فيه جابر بن حيان في الكيمياء والخوارزمي في الرياضيات، وهو عصر الترجمة والانفتاح على الحضارات الأخرى.

عاصر الإمام أحمد ستة من الخلفاء خلال عمره الذي بلغ ٧٥ عاما كانت له مع أربعة منهم صولات وجولات كما سنرى.

كان الناس بدءا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة طلابا للعلم، وكتب الرشيد إلى عماله بالأمصار أن من التزم الأذان يعطى 1000 دينار، ومن حفظ القرآن وأقبل على طلب العلم فله 2000 دينار، ومن حفظ القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم فله 4000 دينار، فكان الغلام في عهد الرشيد يحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنين ويستبحر في العلم وهو ابن إحدى عشرة سنة. وكان الرشيد وهو شاب في العشرين يحفظ القرآن ويروي الشعر ويحج عاما ويغزو عاما، وظل هكذا طوال 22 سنة، وهي مدة حكمه.

ولكن الرشيد لم يكن في تدبيره للمال مثل مؤسس الخلافة العباسية الحقيقي أبو جعفر المنصور الذي كان يقول:

لو أن عندي ألف بعير وفيهم بعير واحد أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره ".

وأبو جعفر هذا لما أتم بناء مدينة بغداد رفع إليه رئيس العمال ميزانية كاملة تشتمل على المصروفات والمدخلات، فوجد أبو جعفر المنصور اختلافا بين المدفوعات والمصروفات قدره خمسة عشر درهما فهدده بالحبس حتى أداها.. !! من أجل ذلك مات المنصور وفي خزانة المسلمين 600 مليون درهم و 14 مليون دينار وقت أن كان الكبش بدينار..

لكن جاء بعده ابنه المهدي فكان معطاء فانفتح عصر البذخ، ليجيء الرشيد بعد أبيه المهدي فلا يقف الإسراف عند حد، وإن كان يحسب للرشيد والمهدي أن أغلب إنفاقهما كان في نفع المسلمين، غير أن من جاء بعدهما ظل على البذخ لكن في غير محله.

اجتمع في هؤلاء الخلفاء جميع المتناقضات: فهم علماء محبون للعلم وللجهاد وهم أهل كرم ومروءة، لكن هذه الصفات تنحرف أحيانا عن مسارها، فمثلا: يتحول الكرم إلى سفه في الإنفاق، فتنفق الأموال في شراء الجواري والمغنيات، وتهطل الآلاف على الشعراء من أجل بيت شعر واحد.

وكان مؤسس الدولة العباسية أبو عبد الله السفاح يسمع الغناء من وراء ستر، فلما جاء المنصور لم ير في داره لهو قط، ورأى يوما خادما له يقف مع الجواري ويضرب لهن بالمزمار فكسره على رأسه وطرده من قصره، ثم تغيرت الأيام فإذا بالمهدي يسمع الغناء ويتسامح أن يشرب

جلساؤه في حضرته، وإن كان هو نفسه لا يشرب، والمهدي هو الذي قال فيه بشار الشاعر:

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

فلما ولي الرشيد انتشر الغناء في قصور الأغنياء. ثم جاء الأمين ابن الرشيد فلم يقف في البحبحة عند حد.

ثم ترقى الخلفاء بعد ذلك في "سلم النغم" حتى صار الخليفة يضع الألحان بنفسه لتغنيها الجواري والمغنون!!. فلما جاء الخليفة المأمون ابن الرشيد عزف عن الغناء سبع سنين، واهتم بالعلم حتى كاد أن يكون فلتة خلفاء بنى العباس، لكنه بعدها أظهر ما هو أشد من شيوع الغناء ألا وهي البدع في الدين كما سنرى.

الخلفاء العباسيون في العصر الأول

في عصر المتناقضات هذا ظهر أحمد بن حنبل، وتحول المجتمع تدريجيا في حياة أحمد من عصر الاهتمام بالدين والعلم إلى عصر الاهتمام بالدنيا وكان نجم أحمد قد بدأ في الصعود لأن الأمة كانت في حاجه لمثله.

كان أحمد يصلي الفجر ويجلس يذكر الله حتى الصباح وكان يقرأ في اليوم سُبع القران ليختمه في أسبوع.. وحج خمس مرات، ثلاث منها ماشيا على قدميه. كان يشتهي العزلة عن الناس، فيَسأل الإمام أحمد حاتمَ الأصم الزاهد المعروف: كيف التخلص من الناس؟ ويجيب حاتم:

" أن توطئهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئا، وأن تقضي حقوقهم ولا تستقصي حقا لك، وتحتمل مكروههم ولا تكره أحدا منهم على شيء "

فيطرق أحمد رأسه ويقول: إنها لشديدة، فيقول حاتم: وليتك تسلم !!

قضى أحمد حياته وعيشه كفاف وشبعه رغيف، وكان نهجه في حياته قد رسمه له شيخه وكيع بن الجراح حين قال له:

الزهد لا يكون إلا في الحلال.. والحلال قد نفد، فأنزِلْ الدنيا منزلةَ المَيْتة، فكُل منها ما يبقيك حيا.

وكان أحمد في زهده متبعا لرسول الله ﷺ الذي كان يمكنه أن تصير له الجبال ذهبا، وكانت له خمس الغنائم بيديه يصرفها كيف يشاء في مصارفها، فكان صلى الله عليه وسلم ثريا زاهدا منفقا لما معه على الفقراء، وكان أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ صحيح البخاري، أما الرسول نفسه فقد تمر الشهور الثلاث لا يوقد في بيته نار.

وكان أحمد في زهده متبعا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قدم عليه يوما حذيفة بن اليمان وكان عامله على المدائن وبين يدي الناس القصاع مملوءة أكلا ودسما، فأدخل عمر حذيفة بيته فإذا طعام خشن فقال حذيفة: " منعتني أن أكل الخبز واللحم ودعوتني إلى هذا؟ ". فقال عمر إنما دعوتك إلى طعامي، أما ذلك فطعام المسلمين!!!

وكان أحمد في زهده متبعا لعثمان بن عفان رضي الله عنه الذى كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

فالإمام أحمد تلميذ عظيم في هذه المدرسة التي تأسست على الزهد والعمل وقطع الاستشراف إلى ما في أيدي الناس.

كان الرشيد قد أعد أبناءه الثلاثة: الأمين والمأمون والمعتصم ليقيموا الدولة على دعائم الدين والعلم، فلما ولي الأمين انحاز إلى العرب لأنه الخليفة الوحيد العربي أما وأبا، لكنه ساق نفسه بلهوه وطمعه إلى مصرعه فقد أراد عزل أخيه عن ولاية العهد فصارت بينهما حرب انتهت بقتله، فجاء المأمون ففاق جميع الخلفاء في العلم ولكنه ألقى بنفسه في أحضان الفرس (أخواله، كما أن زوجته كانت من الفرس) فطغى العنصر الفارسي أكثر من غيره، ورغم أن المعتصم الذى جاء بعد أخيه المأمون برع في الشجاعة وقيادة الجيوش إلا أنه أضاف إلى سيطرة الفرس التي ورثها عمن قبله سيطرة الترك (أخوال المعتصم) فضاعت الدولة وتعمقت الشعوبية وضاع الانصهار الجميل الذى صهر به الإسلام أتباعه.

وفي عهد الأخوة الثلاثة ضاع الوئام الرائع بين الدين والدنيا الذي أوجده أبوهم هارون الرشيد، وضاع التوازن بين الدين والتدين والرفاهية، واختلت كل هذه الموازين لصالح الدنيا.

كان المأمون الخليفة عالما فيلسوفا، وكان بارعا في حفظه وفقهه. ومن الفتاوى المشهورة عنه أن امرأة جاءت إليه تشكو أن أهلها أعطوها دينارا واحدا من تركة أخيها الذي ترك 600 دينار. فقال المأمون بعفوية: هذا نصيبك.. فقال العلماء الحاضرون وكيف؟ قال المأمون: خلف أخوك بنتين؟ قالت: نعم، قال: فلهما الثلثان (400)، وله أمٌ، لها السدس (100)، وزوجة لها الثمن (75)، ثم التفت إليها وقال: وبالله عليك ألك إثنا عشر أخا؟ قالت نعم، قال: أصابهم ديناران ديناران، ولك دينار!!

كان المأمون يتشيع لعلي ﷺ ولكنه لا يقدمه على أبي بكر وعمر، وكان حريصا على حرية الفكر والتعبير، وكان يناقش المرتد بنفسه، ويدعو رؤساء الفرق الضالة للمناظرة ويغلبهم ولا يكرههم على الإسلام، وكان عفوه مضرب المثل وكان يقول عن نفسه: "

أنا والله ألذ العفو حتى أخاف ألا أؤجر عليه من الله"،

لكن في ظل التسامح الزائد انتشر المجون والاستخفاف بالدين. ثم أحاطت بالمأمون في أواخر حياته بطانة أفسدوه بعد أن كاد أن يكون فلتة خلفاء بني العباس، لاسيما حين أصر على إلزام الناس بما يسمى بدعة خلق القرآن !!

سلطان

اتخذ المأمون وزيرا جديدا هو أحمد بن أبي دؤاد، وزينت له بطانته من الفرس (كانت أمه فارسية)، واستبحاره في علوم الفلسفة أن يصدر أمرا يلزم الناس أن يشهدوا أن القرآن مخلوق، وجعل ذلك مسألة دولة، وذلك بدء من سنة 210 هـ.

وقضية خلق القرآن مسألة فلسفية، وفكر انتشرت من قِبَلِ فرقة الْمُعْتَزِلَةُ، وهى فرقة ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي. **وقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية فاعتمدوا على العقل وقدموه على النقل، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل حسب وصفهم، وجعلوا العقل حاكماً على النص، بعكس مدرسة أهل الحديث الذين استخدموا العقل وسيلة لفهم النص وليس حاكماً عليه.**

وكان المعتزلة يرون أن القرآن يحوي نصوصاً متنوعة ومختلفة ومتعارضة في نظر البعض أحياناً، وحيث إنه ليس جائزاً نسب التناقض في القول إلى الله، يصبح من الضرورة أن يتم اللجوء إلى النظر العقلي لتفسير بعض ما ورد في القرآن، وبما أن العقل الإنسانى متطور فهذا ينزع الأبدية عن **فهم** بعض نصوص القرآن (وليس عن **نصوص** القرآن نفسها)، بمعنى أن التفسير قد يتغير مع الوقت.

وهذه القضية التي أثارها المعتزلة لا تزال تحتل موقعاً في السجال حول كيفية قراءة النص الديني والمدى المسموح به في استخدام العقل في تفسير الشريعة الإسلامية، **حيث أراد المعتزلة أن يُفَسِّروا النَّصَّ بما يحقق انسجامه مع مقتضيات العقل وهو رأي له وجاهته، واقتنع بهذا الرأي الفلسفي الخليفة المأمون وطالب بنشر هذا الفكر وعزل كلّ قاضٍ لا يؤمن بهِ.**

فيما اعتمدت مدرسة أهل الحديث على مبدأ تقديم النقل على العقل، وتزعّم هذه المدرسة أحمد بن حنبل فقد كان يرى أن مجرد وصف القرآن بأنه مخلوق يُنزل القرآن منزلة المخلوقات في العرف العام.. كما يمكن أن يتطور الأمر فيقال: طالما أنه مخلوق إذن قد يبلى ويصيبه التقادم، ويصبح غير مناسب لزمن معين.. فانتبه الإمام أحمد لكل هذا ورفض بشدة أن يشهد بذلك.. ومن هنا بدأت المحنة.

وعموما، ليس هنا مجال إعادة هذا الجدل غير المفيد، وفى رأيي أنها قضية فلسفية كان من الممكن أن يلتقى الفريقان على فهم سواء فيها، أو حتى قبول لوجود فكر آخر دون إلزام به أو تكفير لمن خالفه. لكن بطانة المأمون ومن جاء بعده من الخلفاء جعلت هذه القضية كما قلنا مسألة دولة، وعدم الأخذ بها ينقص من هيبة الحاكم. وهو نفس الفكر العقيم في كل عصر.

جمع والي بغداد علماء البلد جميعا وطلب منهم أن يشهدوا بأن القرآن مخلوق، متوعدا إياهم، فمنهم من أجاب تُقيةً ومنهم من أجاب خوفا، ومنهم من أجاب طمعا، لكن الإمام أحمد أبي كل ذلك، ولما رأى العلماء يجيبون انتفخت أوداجه واحمرت عيناه وذهب عنه اللين ورفض أن يجيبهم لما يريدون.

لم يثبت مع أحمد في هذه المحنة إلا رجل مغمور اسمه محمد بن نوح، فأمر المأمون أن يُحملا إليه مقيدين على بعير واحد والسيف في انتظارهما !! وكان عمر الإمام أحمد وقتها 50 عاما.

وفي الطريق إلى المأمون وطوال هذه الرحلة كان عون الله ومدده يأتيه من حيث لا يحتسب، فلما وصل الأنبار عرض له رجل فقال:

يا هذا ما عليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة؟ ثم سلم وانصرف.

ثم جاءه أعرابي في مرحلة أخرى من الطريق فقال:

يا إمام إن يقتلك الحق تمت شهيدا، وإنْ عِشتَ عشت حميدا

فلما كان في مرحلة أخرى جاءه ثالث فقال:

يا هذا، أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن خلق كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك ستموت ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم بشيء"

فانهمرت دموع أحمد وهو يقول: "ما شاء الله.. ما شاء الله "

وصارت الأمة كلها تنتظر الموقعة القادمة ولا حديث إلا عن المأمون وأحمد بن حنبل، أما الثالث وهو محمد بن نوح فقد مات رَحِمَهُ اللهُ من شدة التعب في الطريق رغم أنه كان شابا في عنفوان الشباب، وكانت وصيته للإمام قبل موته:

يا إمام أنت لست مثلي، أنت رجل يقتدى بك وقد مد الخلق أعناقهم إليك ليروا ما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله"

ودعا الإمام أحمد ربه ألا يلتقي بالمأمون.. وكان مستجاب الدعوة، فما أن اقترب من طرطوس حتى جاءه وفاة الخليفة المأمون وتولية أخيه المعتصم، فرجع الموكب إلى السجن، ليظل الإمام منسيا فيه ثلاث سنوات !!.

ولما استقر الملك للمعتصم بدأت بطانة السوء تذكره بالسجين المنسي، وتقول:

لا تدع العامة يقولون غلب خليفتين فتضيع هيبة الدولة !!

وبالفعل جيء بالإمام أحمد في أغلاله لتعقد مناظرة بينه وبين الوزير ابن أبي دُؤاد ومن معه من علماء السلطة، فلما حمل الإمام إليهم.. فكأن الخوف قد دب إلى قلبه، فقال لمن معه في الزنزانة: "والله لا أخشى السيف ولكني أخشى فتنة السوط. فسمع صوتا من زنزانة مجاورة فيها أحد المسجونين يقول:

" يا إمام، لا عليك، فما هو إلا سوط أو سوطين ثم لا تدري أين وقع الباقي !!!".

وهنا كان عنصر الخبرة مفيدا!!. وقال له أحد المساجين وهو ذاهب للمعتصم:

" يا إمام: أنا أبو الهيثم العيار مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ألف سوط وصبرت في معصية الله، أفلا تصبر على بضع سياط في سبيل الله " !!

فتهلل وجه الإمام أحمد وثبت قلبه بهذه الكلمات التي قالها هذا اللص القديم، وكان الإمام أحمد يذكره بعد ذلك ويقول: اللهم اغفر لأبي الهيثم العيار.

وسيق أحمد في قيوده إلى حيث الخليفة، وكان المعتصم من أهيب خلفاء بني العباس، ودارت مناقشات عديدة بين أحمد وعلماء السلطة في حضوره، وأحمد لا يلين لهم ويفحمهم بالحجج من القرآن والسنة، وابن أبي دؤاد وزير الخليفة يقول: " اقتله يا أمير المؤمنين هو والله كافر ودمه في عنقي".

فلما يئسوا منه جيء بالجلادين.. وكان المعتصم قد أشفق على الإمام أحمد أن يضرب وهو في مثل هذه السن وكان قد اقترب من الخامسة والخمسين.. فكان يقول له: **"والله لولا أني وجدتك في يد من سبقني ما تعرضت لك، والله إن أجبتني لأفكن قيدك بيدي ولأركبن إليك بجنودي، فإني والله عليك شفيق** ".

لكن البطانة زينت له السوء فأمر بضربه معلقا بالعقابين (الفلكة) وتعاقب عليه الجلادون بسياطهم وأحمد لا يقول إلا عبارة واحدة: "إتوني شيئا من كتاب الله "، والسياط تمزق جسده حتى ضرب ٣٨ سوطا فغاب عن الوعي.. فلما أفاق جيء له بالماء ليشرب فأبى وقال:

إني صائم.

ورُوى أنه كان كلما ضُرب سوطاً أبرأ ذمة المعتصم، فسئل فقال: كرهت أن آتي يوم القيامة فيقال: هذا غريم رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم (معلوم أن المعتصم ينتهى نسبه إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم).

وذعرت الحاشية لما أغمي على الإمام وخافوا أن يموت فخلوا سبيله بسرعة وحمل إلى داره فمكث شهورا يعالج من آثار السياط التي بقيت في جسده حتى مات.

ولما مات المعتصم خلفه ابنه الواثق، فكان أشد الخلفاء على الإمام أحمد، وأمر الواثقُ الإمامَ أحمد ألا يساكنه في أرض. فظل شهورا مختفيا في بيت أحد تلاميذه، ثم عاد لبيته فلزمه لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها، واستمر ذلك الوضع (إقامة جبرية في بيته) مدة تزيد عن خمس سنوات حتى مات الواثق،

وخلال هذه الفترة كتب الإمام أحمد مسنده المشهور.. فتحولت المحنة إلى منحة من الله ونعمة له وللأمة.

فلما مات الواثق خلفه أخوه المتوكل، وعلى يديه جاء الفرج، فكره المتوكل هذه البدعة وكان ذلك على يد رجل من عوام المسلمين جيء به أمامه فسأله عن مسألة خلق القرآن، فقال الرجل: هذا الذي تدعون إليه.. علِمه رسول الله ﷺ والخلفاء الأربعة أم لم يعلموه؟ فقال ابن أبي دُؤاد متعجلا: لم يعلموه، فقال الرجل ساخرا: وعلمتَه أنتَ؟ فرجع وقال: بل علموه، فقال الرجل: فهل دعوا الناس إليه أم لا؟ فقال: لم يدعوا إليه الناس، فقال الرجل البسيط:

أفلا يسعكم ما وسعهم؟

ومن حينه أمر المتوكل بوقف هذه البدعة، ورد الاعتبار للإمام أحمد.

وصار الخليفة المتوكل يخطب ود الإمام أحمد بكل الصور حتى أصدر أمرا للولاة ألا يطلبوا من أحمد شيئا يكرهه، وكان يرسل إليه العطايا تلو العطايا والإمام يرفض حتى أحصوا ما رفضه فبلغ ٧٠ ألف دينار وهو في أمس الحاجة إلى درهم منها !!

وصار الإمام حجة الله على خلقه في الزهد والورع والصبر. ثم حاول المتوكل التحايل على ذلك فأرسل إليه مالا ليوزعه على الفقراء، فرده أحمد أيضا وقال: أنا في البيت منقطع عن الناس منذ سنين، وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره، وهذا مما أكره.

وعاش أحمد بن حنبل فقيراً يؤثر الخصاصة على أن يكون ذا مال لا يعرف أنه حلال خالص، أو يكون فيه منة العطاء، وكثيراً ما كانت تضطره حاله أن يعمل بيديه ليكسب، أو أن يؤجر نفسه في عمل يعمله إذا انقطع به الطريق ولم يكن معه مال، وكان يؤثر ذلك على أن يقبل العطاء.

كان صبر أحمد صبر أمة.. لا صبر رجل فرد.. وكان يفهم كعالم مسؤول أنه لو ابتدع لابتدعت الأمة بعده

فهؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل.. ولكنهم يرونها أمانات قد أوتمنوا عليها من الله.. فهم يزرعون في الأمة بيد الله

وفاة أحمد

اشتد المرض على الإمام أحمد في أول يوم من شهر ربيع الأول 241هـ، وكان الناس يدخلون عليه أفواجاً حتى تمتلئ الدار، فيسألونه ويدعون له ثم يخرجون ويدخل فوج آخر.

ومات أحمد بن حنبل يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 241هـ، وهو ابن سبع وسبعين سنة. فصلى عليه الآلاف من البشر، فقد مات وقت الضحى ولم يقدروا على دفنه إلا قبيل المغرب من تدافع الناس على جنازته. رحمه الله.

كلمة أخيرة (العفو والصفح)

من أهم سمات شخصية الإمام أحمد قدرته على العفو عمن ظلمه. والعفو هو أن تترُكَ معاقبةَ من يستحق العقوبة وأنت قادر على عقوبته طلبًا لمرضاة الله وعفوه وغفرانه وقربًا منه سبحانه. وفى الحديث الصحيح: ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبدٍ مِن صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فصَبَرَ عَلَيهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّه عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ .

وقد امتدَحَ الله العافِين عن الناس في القرآن في مواضع كثيرة ، فقال في صفات أهل الجنةِ: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَنْ

تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾، ، وقال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

متى يكون العفو مستحبا؟

قبيل وفاة الإمام أحمد جاء رجل فقال لابنه صالح: «تلطَّفْ لي بالإذن عليه، فإني قد حضرت ضربه يوم الدار وأريد أن أستحله»، فرفض الإمام في البداية ثم سمح له بالدخول، فقام بين يديه وجعل يبكي وقال: «يا أبا عبد الله، أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك، فإن أحببتَ القِصاص فأنا بين يديك، وإن رأيتَ أن تُحلِّلني فعلت»، فقال: «أعفو عنك على أن لا تعود لمثل ذلك»، قال: «نعم»، فقال أحمد: «قد جعلتك في حل»، فخرج يبكي، وبكى من حضر من الناس.

وقيل لأحمد: ألا تدعوا على من ظلمك؟ فقال: " ينادى مناد يوم القيامة: ليقم من كان أجره على الله فلا يقومن إلا من عفا" وذلك مصدقا لقوله تعالى ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

وفى تأكيد أحمد على هذا الجلاد أنه لن يعود لهذا الظلم إشارة إلى **الهدف الأساسي للعفو وهو الإصلاحُ**، فإن شعرت أن الذى أساء إليك ينوى الإصلاح والتوبة حقا فالعفو هنا مندوب ويحسن بك أن تفعله.

متى لا يكون العفو مستحبا؟

أما إن لم يتحقَّقِ الإصلاحُ مع تَكْرارِ العفوِ، وتمادى المُسيءُ في إساءتِه، فهنا وجبَ الأخذُ بالحقِّ، والمطالبة بعقوبة المسيء؛ والرسول

صلى الله عليه وسلم يقول: لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين. رواه الشيخان.

وقد ورد هذا الحديث في قصة أبو عَزَّة الجُمَحي الشَّاعر، وكان يهجو النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه في شِعره، ثم أُسر في غزوة بدر فيمن أُسر من المشركين، فتذلل إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أن يعتقه دون فداء، وقال: يا محمد، إني فقير وذو حاجة، فامنُن عليَّ لفقري وبناتي، فرقَّ الرسول له وأطلقَه دون فدية، بعد أن أخذ عليه الميثاق ألَّا يناصر عليه أحداً بشعره.

فلمَّا عاد إلى مكة أبى عليه لُؤْمُه وسُوءُ طويَّته إلا أن ينال من المسلمين بِشِعْرِه مرة أخرى بل وخرج مقاتلا مع المشركين يوم أحد، ويشاء الله أن يقع أسيرًا في غزوة حمراء الأسد، فعاد سيرته الأولى، يَضْرع ويشكو، ويقول للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: امنُن عليَّ لفقري وبناتي، وأعاهدك ألَّا أعود لمثل ما فعلت. فهنا يكون العفو في غير محله، ولذا قال له صَلَوات الله وسلامه عليه إجابته المشهورة:

" **لا والله، لا تمسَح عارضَيْك بمكة** (كناية عن الاستخفاف)، **وتقول: خدعتُ محمداً مرَّتين، لا يُلدغ المؤمن من جحْر واحد مرتين**"

وأمر بقتله. وهذا أيضا تصديق لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.